مختبر "توماس مان"

بقلم فردينان ليون

ترجمة عائدة مطرجي

حين يتجاوز الفنان حده* في النفاذ ببصره الى الاشياء ، يغدو هدام حياة . ذلك ان ما يصوره يكف عن ان يكون . فكلما ازداد قرباً من الكمال ، ازداد نصيب الزوال . هكذا كان توماس مان يكتشف بذعر انه مرتبط بالموت. وقد كان بوسعه ان يرتاح الى ذلك لو انه كان لااخلاقياً او عدمياً . ولكن على عكس ذلك ، كان مما يجلب له غماً متصلاً الا يكون انساناً متوسطاً يعيش عيشة عادية . ومن هنا كان اقل اثر من آثاره يتكشف عن جانب مؤثر بسبب حقيقة عذاب مكمون. لقد كان الرجل مقسماً الى قسمين : فان جماليته التي كانت تنزع الى المطلق ، كانت في تناقض فاضح مع اخلاقيته. وكان يأخذ على نفسه انه لم يكن يستطيع ان يخلق الا مظاهر. أتراه لم يكن الكذاب المزور الذي كان يضلل ، هو الذي كان بوده ان يكون الانسان النبيل غاية النبل ؟ ان كل ما كان يقوم به كان يرده الى معضلته التي لا تحل ، الى هذه العبارة المروعة : « انا ناكر الحياة ! » .

ولقد ادرك، متأخراً جداً في كتابه « فاوستوس » Faustus ان هذه القوة السلبية التي كان حاملها ، على غير ارادته ، كانت تمت بصلة القرابة الى شيطان القرون الوسطى. وهكذا اعترف ، في اللحظة نفسها التي ابتعد فيها سياسياً عن بلاده المسالمة الى القوى الجهنمية ، اعترف وهو في حالة ذل بالغ بان القوة التي كان يحاربها بهوس وبكل ما ملكت قدرته كانت قائمة في صميم ذاته ايضاً .

أتراه ينجح في التخلص منها؟ لقد كان الجانب الدراماتيكي في حياة «توماس مان » يكمن في جهده لادراك الطيبة الخالصة . وهنا بالذات ، وليس في الفن (الذي كان قد بلغ فيه ، منذ البداية القمة الممكنة) تمت ذاته الحائرة . ولما كان قد تألم كثيراً فقد كان يجزر آلام الاخرين وجميع الوان المتاعب حتى تلك التي لم يعشها . كان يريد ان يكون رحيماً. ولئن كان فرط وعيه ، يمنعه هنا ايضاً ، من ان يرأف بسذاجة، فقد كانت به على الاقل رغبة في ان يستشعر الشفقة . وفي هذا المنحرف غدا الفنان رجلاً عاماً. لقد كانت غاية توماس مان السياسية ان يخفف الالام الموجودة او ان يحول دون ان تأتي آلام جديدة لتنضاف اليها . ولم يكن حتى ذلك الحين صالحاً ليحكم ان كانت هذه النزعة المناقضة للميكيافيلية ممكنة ،او ان كان ينكرها الواقع الذي يتطلب حساباً لا هوادة فيه. ولكنه على كل حال نجح، بهذه الطريقة، في ان يملأ بالامل نفسه وفي ان يفتديها بمعونة القوى السماوية كما هو شأن «فاوست » بطل « غوتيه » .

وهناك عذاب آخر : لقد كانت قدرته على الانتاج غير منتظمة . وكان الفنان يتعزى من صعوباته بما يرافق مباشرة العمل من دقة بالغة . ولكن لم يكن شيء يستجيب احياناً لندائه ، لروحه الخلاقة.

وكلما كان يجهد نفسه ليخلق الحالة الموانية ، امتنعت عليه الموهبة الخلاقة . وبدلاً من ان يتذكر توماس مان انه غالباً ما كان يتعرض لهذا الحادث — وان بوسعه ان يستعيد العمل بعد فترة راحة — كان كل مرة يفقد كل شجاعة ويعتبر عقمه نهائياً كان يرى نفسه منطفئاً الى الابد ، وكان من فرط يأسه ينهار ، وهو شديد الحنق على جسده العاصي الذي كان يبدو له مجرماً . واذاً فلم يبق امامه الا امكانية الهرب . وقد كان هذا الهرب نفسه يتحول الى اثر فني : ففي « ميت في فنيسيا» يحاول « اشنباخ » ان يعود خلاقاً من جديد مستعيناً بمغريات « فنيسيا » الاصطناعية . وبالرغم من كل تشككية « مان » ، فقد كانت الاعجوبة تتم : ان كل ما كان يتبدى لمسافر متعطش الى الحرية هوى بسيطاً ، كان سرعان ما يتحول الى ينبوع من الشعر . فان المراهق البولوني وصاحب غندول التهريب الذي يختفي قبل ان يتقاضى الاجر ، وقد ابتلعته الامواج ، والرحلة المنوية ، ثم العودة القسرية نحو « الليدو »، بعد تضييع الامتعة — ان جميع هذه الحيل الممتعة من المصادفة والافلاس كانت واقعية .

لقد كان يكفي ، لكي يظل الحب في نظر المراهق افلاطونياً محضاً،ان ينسق هذا المجموع ثم يضاف اليه، بعمل

* راجع العدد ٥٦ من مجلة « ادلة » Preuves

ارادة واعية الالهة اليونان ، عبر نيتشه وديونيزوس وان تدرج فيه « ليزيس » افلاطون . ان القصة تنتهي بالموت لا بالهزيمة ،لان الفنان في الحقيقة عرف اذ انتصر على تعبه ان ينجز مع ذلك العمل المرجو . وان طفرة القوة الخلاقة من جديد ، هذه الطفرة التي اتت بعد خور شديد القسوة قد طبعت تصميم « الجبل السحري» . لقد كان هذا الاثر يتقدم بهدوء في اسلوب رواية رحلة انكليزية على نحو ما تقصّدمان.

وكان الجزء الاول قد انتهى وكان نصف الثاني يستكمل اسبابه . ثم اتى الوقوف . وقد اسرعت رفيقة الكاتب الامينة بحزم الامتعة . ولكن « توماس مان» رأى اذ وصل الى فندق فخم في انسبروك شخصاً يهبط السلم بعظمة : إنه « جرهارت هوبتمان » Hauptman . وسرعان ما ادرك ان هذاهو الشخص الذي كان ينقصه فكاد يهتف من شدة سروره ازاءهذا المزيج من المصادفة والقدر. لقد كان بحاجة الى هذا الشخص بحيويته تلك الفياضة الجديرة بان تصهر ترددات الحذرة في « كستروب». اي فيض من الامكانيات الجديدة! ولئن لم يعد الى بلده حالاً، فذلك حتى لا يعترف لنفسه بان الحظ كان قد سبق له ان اعطى كل امكانياته .

وكانت ثمة وسيلة اخرى يستطيع «مان» ان يتجاوز بها هوة التعب هي قراءة مؤلفاته، في نطاق دائرة عائلية صغيرة اولاً ثم امام اصدقاء، كل ذلك بسرور ساذج كأن ما كان يقرأه قد خلق الان وكان يدهشه . واخيراً كان يقرأها امام الجمهور الكبير الذي كان رضاه واعجابه يحملانه كأمواج تتكسر على الشاطيء . ولما كان المؤلف قد اصبح ديمقراطياً فقد كان مجبراً على ان لا يتدرع بالوحدة المترفعة على غرار « اشنباخ » عالم الجمال . كان عليه ان يجابه الجموع ويحاول الاقتراب منها . وقد كانت جولاته الكبيرة في المدن الاميركية مقدمة لخطبه ضد النازية التي كانت تتوجه بالراديو الى العالم كله . لقد خاطر المتوحد بنفسه اذ اتجه نحو الجموع بدافع من نظرية اخلاقية . كان يعد « التمثيل » واجباً من واجبات الشاعر . ان اميراً جمع في حدود جسده وفكره انتفاضات امة بكاملها يجب عليه ان يرد قسماً مما اعطاه اياه الجمهور ، بان يعرض شخصه امامه . وكان على « مان » ان ينسى ، في الظاهر ، شكوكه في نفسه ويظهر كما كان يحلم به او كما كان بوسعه ان يكون وقد كان هذا اللعب يذهب بتعبه ويشكل قسماً من تدربه الصحي ليقهر لحظات الضعف والخور ، ولكنه كان يجلب له ايضاً مزيداً من التعب . ولو كان المؤلف قد ادرك مسبقاً اتساع مؤلفاته ذات الابعاد الملحمية ، لتراجع عن تأليفها . فان الخوف من ان لا يكون له نفس امثال بلزاك اوتلستوي كان جديراً بان يشله . ذلك انه كان خجولاً او بالاحرى متردداً تجاه هباته بالذات . لقد فكر بان تكون كل رواية من رواياته تقريباً موضوعة بشكل موجز . لقد كان « الجبل السحري » و « جوزف » اقصوصتين قصيرتين اول الامر . ان الاولاد والاحفاد عنده كانوا يتقدمون الاجداد الذين كان صفهم الطويل الصاعد لا يأتي الا فيما بعد : فقد كان هناك اولاً « هانو بودنبروك » الذي انجب الاجيال السابقة . بالتراجع ، وكذلك لم يصبح «جاكوب» ضرورياً الا ليشرح «جوزف» ثم يعود التتابع الوراثي المقلوب الى وضعه المستقيم . ومن هنا نشأت لدى « مان »حساسية بالغة لمادة الزمن . فالزمن هو نفسه يصبح بطل « الجبل السحري » واذ ذاك تتراكب السنوات في كل بطئها ديمومة محضة (كالسنوات السبع التي كان « جاكوب » في اثنائها عبداً لـ « لبان ») .ان توماس مان لم يكن قط قد قرأ «برغسون» ولم يتأثر « بپروست » بل هو لم يدرك تقاربه مع هذا الاخير (باعتبار ان بروست بذل الصبر نفسه في نسج مؤلفاته) فقد كان يعتبر نفسه اقرب الى التأثر بجيد . ولا شك في ان المعنى الجديد للزمن قد مسه كعنصر في الجو الذي تنفسه دائماً : جو الوحدة الاوروبية . وقد كان ما تتمخض به فرنسا يثير فيه تنبؤات كما لو ان هذا قد ولد في جسده. وكان يعتز بان يتحدث علناً عن جميع التأثيرات التي تعرّض لها .

توماس مان

ويمكننا ان نلخص الامر كما يلي : ان هذا الفكر المجنح كان يحب ثقل المحسوس . وقد جعلت منه هذه النزعة لمدة طويلة احد الطبيعيين . فنحن نجد في حديثه عن « بودنبروك»

قصص البرجوازية كما نجدها عند بلزاك . انه يصور الاوساط تصويراً دقيقاً جداً . بل هو يتجاوز المدرسة الطبيعية بما يكسبه اوصافه للامراض الجسمية في دقة علمية . وقد كان يجب ان يسجل الاحداث الصغيرة . ولا شك في ان هذا التراكم للملاحظات كان ضرورياً له . فلو انه انغمس مباشرة في فيض الحياة، وهو الخائف المتقهقر المتألم ،لغرق فيه . لقد فتتت اغذيته الارضية تفتيتاً دقيقاً،او انها بالاحرى كانت في مقدارها محدودة جداً بقدر ما كانت غنية في جوهرها . وهكذا فان قصه « بودنبروك » تضم مصائر اسرته ومدينته. وقد تجمع هذا وتضاعف في عقل الطفل ، والحدث ، والشاب الذي امتلأ به كيانه من غير ان يريد. وباستثناء الالتصاق بهذه الينابيع الارضية الاولى ، لم يعرف مان الا تجارب حية قليلة؛ فعبقريته كانت اذن في تضخيم هذا القليل ، القليل جداً ، وفي نفخه بالنسغ الخيالي. لقد كان هذا الساحر يتجاوز الواقع في خلقه للواقعي . انه في « فينيسيا » لم يعش في بيته « كبارس » Barrès . ان اقامته كانت قصيرة جداً . فمصح الجبل السحري قد ولد من اقامة بضعة اسابيع في « كلافادل » وفي « دافوس » مرافقاً زوجته . وسنو « كستروب » السبع او العشر ، مع جميع تفاصيل الوسط هي تفتح خيالي للمؤلف الذي « عرف ان يجعل من الواحد عشرة » . وكان مضطراً احياناً ليسد ثقباً فاغراً فاه في مؤلف ما الى ان يقذف فيه صديقاً كما لو كان جثة . لقد كان مفرطاً في التقتير . فيجب ان لا يضيع شيء في هذا القليل الذي كان يعيش منه . ففي «فاوستوس» استخرج في الحديث عن عائلته كل اعماق ادراجه ، كل ما تبقى له بعد ان استنفد ذكرياته في « بودنبروك ». وكان غالباً ما يرمي في حفرة علوماً برمتها لكي يسد ثغرات اشياء معاشه. ان «الجبل السحري» هو موسوعة لا للسياسة وحسب، ولكن لعلم الطب وعلم النفس التحليلي وعلم الفلك وعلم الاحوال الجوية. وكتابه « لوت في ويمار » يغص بالمعطيات المستمدة من تاريخ الادب. « وفوستس » هو مجموعة واسعة لمختلف الآلات الموسيقية ولجميع الاساليب ، من « باخ » ، « وبتهوفن » حتى « شونبرغ » . ولكن فكر توماس مان لم يكن ليشارك في اي علم من هذه العلوم مشاركة فعلية . لم يكن يفعل الا ان يستغل المعطيات المعدة التي كان يتبنى منها الجزء المفيد موقتاً لمؤلفه .

بين هذه المظاهر جميعها ، ما الذي كان يبقى حقيقياً بصورة مطلقة ، انها « اناه » في ما وراء عائلته . وهو لم يكن يتعب مطلقاً في ان يتطور داخلها تطوراً عميقاً .

وهكذا فان جميع اشخاصه تقريباً ما هم الا شروح لشخصه بالذات، او بالاحرى لتغيرات في موضوع وجوده . وكان الفضول لان يقوم باكتشافات في نفسه يتملكه . لقد كانت المرايا التي تعكس صورته تتعدد في رواية واحدة . وكل هذه المرايا اقنعة يلبسها ثم ينزعها ، آخذاً على نفسه انه لم يعط إلا ظاهر المظاهر ، مما يقوده الى اختلاق شكل جديد لنفسه، هو قسم لا يتجزأ من اناه يكتشفه بواسطة التجربة . والحق ان تتابع الخلق الشعري والدراسة الفكرية لدى « مان » هما قسم من مسلك صحي : حين يتعب من الخلق، يفر الى العقل المحض او بالعكس. وكان يبلغ في تقنيع نفسه احياناً حد السفاهة ، هو الذي كان ينشد لنفسه الحشمة كلها . ولكنه كان ينعم بكونه اجرأ فنان وفي الوقت نفسه الاخلاقي الذي يعترف بخطاياه . ولكن هذا هو ايضاً قناع جديد يجب ان يُخلع للوصول الى الحقيقة القصوى. فاذا واجهنا الموضوع من هذه الزاوية، رأينا الموت يأتي ليقطع ابحاث الرجل في التفتيش عن نفسه . ولم تكن هذه الابحاث قد انتهت بعد ، بالرغم من غزارة مؤلفاته. فمن المستحيل علينا ان نعتبر بطله الاخير « كرول » التجسيد الاخير له . فلو منحته الحياة سنة اخرى او شهراً او اسبوعاً ، لربما كان ادرك آخر مرحلة من سره الاخير .

هل كان باستطاعة هذا « الانا » وحده، مهما بلغ من عمقه وغزارته، ان يثير اهتمام المانيا واوروبا والعالم؟ لقد كان من حظ « توماس مان » ان ما كان يصوره كشيء خاص محض ، كان يكتسب بعد فترة قصيرة من الوقت قيمة رمزية عامة . وهكذا فان هذه الاثار ، بالرغم من انها قد اعدت في مختبر خاص جداً، قد اكتسبت اهميتها من التغيرات الاجتماعية التي كانت تجري حولها. ان هذه الاثار التي صدرت في نصفها عن كائن منكب على نفسه وفي نصفها الاخر عن شيء خارجي، هي هشة جداً، اذ هي لا تنتسب الا الى لحظات فارّة . ولكنها من جهة اخرى طافحة بحقائق قد دخلت في التاريخ . لقد صنعت لتدوم ابداً .

نقلتها عن الفرنسية

عائدة مطرجي